السّير إلى هناك

منح الصلح

نادراً ما عرفتُ في حياتي شخصاً سريعَ التعلُّم والتثقُّف، سريعَ الالتقاط لسرّ الأشخاص والأجواء والمجتمعات، سريعَ العَقْد للصداقات والعلاقات، متنوّعَ القدرات، متعدّدَ الاهتمامات، حيويَّ الحضور في كلِّ جلسة، قادراً على العطاء في أيّ ظرف، مستمتعاً بالعمل المتواصل، متشوّقاً باستمرار إلى الأوفر منه، منجزاً، لمّاحاً، رقيقاً، باسلَ الموقف والمبادرة... مثل غسّان كنفاني.

عندما التقيتُه للمرّة الأولى، وكان ذلك في الكويت عام ١٩٥٩، لفتني فيه الدورُ الذي يلعبه ـ على صِغَرِ سنّه ـ في حركةِ النوادي الناشطة يومئذ في أوّل بواكير الانتعاش القومي والديموقراطي الذي تعرفه الكويت.

إنّه واحد من الأجواء الفلسطينيّة التاريخيّة خارج فلسطين التي وُلدتْ فيها الحركةُ الفلسطينيّةُ الجديدة بعد النكبة، لا يعادله في العزم والغليان إلّا الجوّ الذي عاشته قبل فترة بيروتُ الجامعة الأميركيّة ومخيّمات لبنان، وكانت تعيشه عمّان ويعيشه الشبابُ الفلسطيني في غزّة والقاهرة.

وكنتُ قد جئتُ الكويتَ في طريقي إلى العراق ـ ولذلك سببٌ ليس مجال ذكره الآن ـ فدعاني أحدُ هذه النوادي مع زوّار لبنانيِّين إلى حضور مهرجان تشهيري بحاكم العراق عبد الكريم قاسم. فإذا عريفُ الحفلة غسّان كنفاني يفاجئني بالطلب مني خارج برنامج المهرجان أن أتحدّث عن نتائج ثورة ١٩٥٨ في لبنان. فانطبعتْ في ذهني شموليّةُ همِّه القومي، مع فلسطينيّةٍ حادّة كان امتزاجهما معاً يشي بأنّه من حركة القوميِّين العرب، بملامحها المميّزة بالتشديد على محوريّة العمل الفلسطيني داخل العمل العربي والتأكيد على العنف النضالي والحثّ على معرفة واقع العدوّ الاسرائيلي فكراً واتّجاهاً وحقائقَ قائمةً على الأرض.

بعد فترة أرسل إليّ مع صديق مجموعة **قصص موت سرير رقم ١٢**. وقد كتبت له، بعد أن جاء إلى بيروت محرِّراً في جريدة **الحريّة** أنّ «موت سرير رقم ١٢» هي في نظري أوّل قصّة تبرز فيها صورةُ جزءٍ واسع وذي خصوصيّةٍ من الوطن العربي هو عالم الخليج، إذ كان لبنان والعراق والمغرب وسوريا ومصر قد دخلت منذ زمن بعيد في القصّة العربيّة، وأمّا الخليج فلم يكن قد أخذ شرعيّةَ هذا الدخول على الرغم من صدمة التحوُّل والاختلاط الإنساني الواسع والمثير التي أحدثها النفط. وإذا صحّ تقديري فإنّه يكون فلسطينيّاً أوّلُ من أدخلَ الخليجَ إلى القصّة العربيّة. وفي هذا الإطار يمكن أن تندرج أيضاً رواية **رجال في الشمس**.

في بيروت التي التقى فيها زوجتَه السيِّدة آني تفتّحتْ شخصيّةُ غسّان كنفاني. ولعلَّ لذلك علاقة بكونه يتحدَّر، كما قال لي، من عائلة بيروتيّة. ولا شكَّ أنّه اختار بيروت اختياراً لتكون مُستقرّاً له. فمرّة سأله أحدهم أمامي هل أنت من فلسطينيّي عام ١٩٤٨، أي من النازحين في ذلك العام؟ فأجاب على طريقته: «أنا من فلسطينيّي القرن التاسع عشر»، مشيراً بذلك إلى أنّه ابنُ عائلة انتقلت إلى عكّا بتاريخ غير قريب، وليس العكس.

وقد انجذب غسّان إلى بيروت بحيويّة شارعها السياسي، وبكونها مركزَ التسمُّع والبثّ الأوّل في الشرق الأوسط، والمكانَ الأصلح لإعطاء الإعلام الفلسطيني والعربي حجماً عالميّاً.

غير أنَّ عمقَ ارتياحه إلى وجوده في لبنان كان يعود أيضاً إلى اعتقاده بشراكات عديدة بين الشعبيْن اللبناني والفلسطيني، منها الشعور بالقلق من أنّهما كليْهما يعيشان صراعاً مصيريّاً عدوّهما فيه كاملُ العداوة والحليف بأقصى الحلف. ولا أنسى بأيّ شعور أخويّ بوحدة الحال هتف لي من **المحرّر** على أثر محاضرة لي بعنوان «الانعزاليّة الجديدة» ألقيتُها في النادي الثقافي العربي وبرز فيها تواصلُ القضيّتيْن. وكذلك يوم تحدّثت بعد سنوات في كليّة العلوم عن الكيان والثورة في العمل الفلسطيني.

كان واضحاً في كلّ تفصيل من تفاصيل حياته الداخليّة الارتياحُ ـ رغم مرارة السكّري ـ إلى استقراره في لبنان وإنتاجه فيه. ففي البيت الذي سكنه في مار تقلا مع السيِّدة الرائعة زوجته (طريف أنّ هذا الزواج شجّع الكثيرين على الاقتداء به) كادتْ قطعُ الأثاث تكون كلُّها من صنعه. فالطاولة هنا هو الذي نجّرها، والكرسيُّ هناك كذلك، والمصباحُ من ابتداعه، والبرادي ولوحات الرسم... إلخ. فمهاراته ونزعته الفنّيّة كلّها وضعها في خدمة هذا البيت

وتزيينه وتخفيض نفقات فرشه في الوقت نفسه. ولم أشعر وأنا أهديه بمناسبة زواجه طقمَ مائدةٍ جزّيني الصنع إلاّ أنّني أقدّم له إنتاجاً من نوع بضاعته. ولم أكن أستغرب أن آتي يوماً إلى زيارته فأجده قد اخترع سكاكينَ ومعالقَ تتحدّى براعات الفنّ الجزّيني العريق المستعصي حتّى الآن ـ والحمد لله ـ على محاولات الاسرائيليّين لتقليده وإدخاله هو الآخر في قائمة السطو على التراث.

ولم أُصادفْ من هو أكملُ ضيافةً منه. فالضيافةُ عنده خبزٌ، وملح، وموسيقى، وكتبٌ، وحوارٌ، وتوادٌّ مع الصغير والكبير والصديق والصديقة، وتنظيمٌ لشؤون الحياة وغير الحياة أيضاً. وما أوسعَ الوقت الضيّق يستوعب كلّ ذلك!

وكنت أراه في الصحف، في الحريّة، ثمّ في المحرّر، ثمّ في الأنوار، ثمّ في الحوادث، ثمّ في الهدف التي تفرّغ لها في النهاية، فيتولّد عندي شعور أنّه فيها جميعاً أكثر أعضاء الأُسرة ضرورةً.

فهو كناظر المدرسة المتعدِّد المواهب قادر ـ إذا لزم الأمر ـ على أن يحلّ في التدريس محلَّ أُستاذ الرياضيّات أو النحو أو الفيزياء أو الكيمياء أو اللّغة الأجنبيّة. هكذا بكلّ بساطة وباتقان يزهّدُ التلامذة بأستاذهم الأصيل في كلّ مادة من هذه المواد.

كان من أوائل من حلّوا مشكلة الطلاق بين الايديولوجيا والكتابة الصحفيّة والأدبيّة.

لكنّ أهمّ ما تميّز به كصحفي، إلى تمكّنه من فنون الافتتاحية والعمود والخبر المحلّي والخارجي والعنوان والتحقيق والترجمة والثقافيّات والكاريكاتور والملصق السياسي ـ الذي أجاده وأدرك مبكراً أهمّيّته فملأ به الشرق والغرب ـ ، أنّه كان أحد القلائل بين العرب ومن أوائلهم الذين استفادوا من التقنيّة الصحفيّة في تجديد الأداء الأدبي، في القصّة والرواية. كما كان من أوائل من حلّوا مشكلةَ الطلاق بين الايديولوجيا والكتابة الصحفيّة والأدبيّة.

لقد كان قادراً على أن يجعل المادةَ الايديولوجيّة تختفي وراء الإمتاع الفنّي الكتابي ووراء الخبر الجذّاب، كما تختفي الڤيتامينات في برتقالةٍ يافاويّةٍ أو صَيْداويّةٍ شهيّة. ويا له من مهرّبٍ حاذق يُحسن سَوْقَ المفيد في لفائفِ المثيرِ والمُخدِّر والمستطاب!

«فابن الصنعة لا يُغلبَ»، كما يُنبِّه الصنائعيُّ الذكيُّ بين التقرير والتحذير زبوناً جاء يتشاطر عليه في السعر والتكاليف، وكما لخّص أحمد بهاء الدين ـ شفاه الله ـ تجربتَه حين قال في حديث له في جريدة الحياة قبل مرضه: إنّ الكاتب المتمكّن يجد دائماً طريقه ليوصل إلى القارئ ما يريد تحت أيّ ظرف من ظروف الرقابة؛ فالمشكلة هي في حدّ الإتقان والقدرة عند الكاتب، أكثر منها في حدّ الوعي والرغبة في التقييد عند الرقيب.

ولا بدَّ من القول إنّ غسّان كنفاني في قدرته بل في موهبته الفريدة في التأقلم، كان في الصحافة اللبنانيّة خيرَ من يخبز عجينَتَه الفلسطينيّة العروبيّة على الصاج اللبناني فتخرج الأرغفةُ رقائق لبنانيّةً تحلو في كلّ عين وفي كلّ معدة، يتقبّلها قارئ عموده في الأنوار كما يتقبّل قارئ النهار عمودَ زميله الكبير ميشال أبو جوده؛ فلا غربة ولا انفصال ولا اتّهام بانحياز لقضيّة على حساب قضيّة.

لقد اكتمل عنده الالتزامُ، فرهف ودقّ أداء، حتّى بات لا يُرى إلاّ من زواية كونه تجديداً كتابيّاً وتحليلاً موضوعيّاً ورأياً من الآراء.

وكانت روُح بيروت الستينات، بتجاوبها مع إحساسه وميوله وقضيّته، تنمّي فيه نزعة التوجّه إلى القارئ بغير قسوة اللغة الايديولوجيّة التي وقفت حاجزاً على مرّ الأيّام دون رواجِ الصحف والمجلّات ذات النبرة العالية في الإعلام السياسي.

كما كانت بيروت وعلاقاته الصحفيّة تقدّم له مجالاً رحباً لإقامة اتّصالات تتعدّى الصحافة، اتصالات جعلتْ منه أحدَ رموزِ الإنجاز الإعلامي الفلسطيني والحضور السياسي معاً، ومكّنته ـ في جملة ما مكّنته ـ من مدِّ الجسور داخلَ الأرضِ المحتلّة، متّصلاً بالمواهب الشعريّةِ والأدبيّة، رافعاً الحجاب عن معادن قيّمة كمحمود درويش وسميح القاسم وسواهما، مفسحاً لها صدورَ الصحف والمجلّات اللبنانيّة والعربيّة والأجنبيّة، مطلقاً شعرَ المقاومة الفلسطينيّة بوجهه الحضاري المشرق.

وبالمناسبة فإنّ تراث غسّان الفنّي الإعلامي استمرَّ يخلق الروائع على يد غيره. فآخر ما شاهدتُ «أحلام في فراغ»، وهو فيلم وثائقي مطوّل من إخراج عمر قطّان يدور حول جدل الأصوليّة والوطنيّة، تظهر فيه شخصيّة باسمِ «أمّ محمود» تذكّر بصدق بشخصيّة «أمّ سعد».

ولعلّ سرّ حياة غسّان وسحرها أنّه كان النموذج عن إنسان مؤمن موهوب، عاش ميولَه حتّى الثمالة ولكنه عاشها ملتفتاً إلى فوق، وهو يصعد باستمرار من السهل إلى الصعب، ومن الصعب إلى الشاقّ، ومن الشاقّ إلى الأشقّ. لم تجذبْه سهولةٌ تَقْعُدُ به عند سفح الجبل، أو تَنْزِلُ به درجةً من السلّم نحو راحةٍ تداوي جسدَه المتعب وروحَه الطامحة.

قضى غسّان في الذروة، ولقد مشتْ معه في يوم وفيٍّ الألوفُ المودّعةُ في بيروتَ الغنيّةِ بالوداعاتِ الوفيّة. إلى أين؟ لم يكنْ يدري هو ولا كنّا ندري سوى أنّه السيرُ إلى هناك، هناك بعيدةٍ قريبةٍ مستحيلةٍ سهلةٍ ونبيلةٍ بأيّ حال. وإنّها الطريقُ التي يحلو فيها الدمعُ المرّ.